مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الثَّامِنَة

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا:

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ فِي إِهْدَارِ التَّقْلِيدِ تَكْلِيفًا لِلنَّاسِ بِمَا لَا يُطِيقُونَ؛ فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَالِمًا، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ قَادِرًا عَلَىٰ الِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ.

*** وَجَوَابُ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ:**

«**أَحَدُهَا**: أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ بِنَا وَرَأْفَتِهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْنَا بِالتَّقْلِيدِ، فَلَوْ كَلَّفَنَا بِهِ لَضَاعَتْ أُمُورُنَا، وَفَسَدَتْ مَصَالِحُنَا؛ لِأَنَّا لَمْ نَكُنْ نَدْرِي مَنْ نُقَلِّدُ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَهُمْ عَدَدٌ فَوْقَ الْمِئِينَ، وَلَا يَدْرِي عَدَدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَلَئُوا الْأَرْضَ شَرْقًا وَغَرْبًا وَجَنُوبًا وَشَمَالًا، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ -بِحَمْدِ اللهِ وَفَضْلِهِ- وَبَلَغَ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ.

فَلَوْ كُلِّفْنَا بِالتَّقْلِيدِ لَوَقَعْنَا فِي أَعْظَمِ الْعَنَتِ وَالْفَسَادِ، وَلَكُلِّفْنَا بِتَحْلِيلِ الشَّيْءِ وَتَحْرِيمِهِ، وَإِيجَابِ الشَّيْءِ وَإِسْقَاطِهِ مَعًا إِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ كُلِّ عَالِمٍ، وَإِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ الْأَعْلَمِ فَالْأَعْلَمِ فَمَعْرِفَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّنُ مِنَ الْأَحْكَامِ أَسْهَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَعْلَمِ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ شُرُوطُ التَّقْلِيدِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ عَلَىٰ الْعَالِمِ الرَّاسِخِ فَضْلًا عَنِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي هُوَ

كَالْأَعْمَىٰ، وَإِنْ كُلِّفْنَا بِتَقْلِيدِ الْبَعْضِ، وَكَانَ جَعْلُ ذَلِكَ إِلَىٰ تَشَهِّينَا وَاخْتِيَارِنَا صَارَ دِينُ اللهِ تَبَعًا لِإِرَادَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا وَشَهَوَاتِنَا، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَىٰ مَنْ أَمَرَ اللهُ بِاتِّبَاعِ قَوْلِهِ وَتَلَقِّي الدِّينِ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ، وَذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولُ اللهِ وَأَمِينُهُ عَلَىٰ وَحْيِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ هَذَا الْمَنْصِبَ لِسِوَاهُ بَعْدَهُ أَبَدًا.

الثَّانِي: أَنَّ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ صَلَاحَ الْأُمُورِ لَا ضَيَاعَهَا، وَبِإِهْمَالِهِ وَتَقْلِيدِ مَنْ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ إِضَاعَتَهَا وَفَسَادَهَا كَمَا الْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مَأْمُورٌ بِأَنْ يُصَدِّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَلَمْ يُوجِبِ اللهُ -سُبْحَانَهُ- مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا فِيهِ حِفْظُ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا وَصَلَاحُهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَبِإِهْمَالِ ذَلِكَ تَضِيعُ مَصَالِحُهَا وَتَفْسَدُ أُمُورُهَا؛ فَمَا خَرَابُ الْعَالَمِ إِلَّا بِالْجَهْلِ وَلَا عِمَارَتُهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَإِذَا ظَهَرَ الْعِلْمُ فِي بَلَدٍ أَوْ مَحِلَّةٍ قَلَّ الشَّرُّ فِي أَهْلِهَا، وَإِذَا خَفِيَ الْعِلْمُ هُنَاكَ ظَهَرَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا فَهُوَ مِمَّنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلَوْلَا الْعِلْمُ كَانَ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ.

وَقَالَ: النَّاسُ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْعِلْمِ مِنْهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَالْعِلْمُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ

وَقْتٍ(١).

الرَّابِعُ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَخُصُّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا لَا تَدْعُوهُ الْحَاجَةُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِضَاعَةٌ لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَلَا تَعْطِيلٌ لِمَعَاشِهِمْ، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم قَائِمِينَ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعِمَارَةِ حُرُوثِهِمْ وَالْقِيَامِ عَلَىٰ مَوَاشِيهِمْ، وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِمَتَاجِرِهِمْ وَالصَّفْقِ بِالْأَسْوَاقِ، وَهُمْ أَهْدَىٰ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ لَا يَشُقُّ فِي الْعِلْمِ غُبَارُهُمْ.

الْخَامِسُ: أَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله وسلم دُونَ مُقَدَّرَاتِ الْأَذْهَانِ وَمَسَائِلِ الْخَرْصِ وَالْأَلْغَازِ، وَذَلِكَ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَىٰ النُّفُوسِ تَحْصِيلُهُ وَحِفْظُهُ وَفَهْمُهُ، فَإِنَّهُ كِتَابُ اللهِ الَّذِي يَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:٢٢].

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيْهِ؟ وَلَمْ يَقُلْ: فَتَضِيعُ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ وَتَتَعَطَّلُ مَعَايِشُهُ عَلَيْهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَهِيَ - بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ- مَضْبُوطَةٌ مَحْفُوظَةٌ، وَأُصُولُ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا نَحْوُ خَمْسِمِئَةِ حَدِيثٍ، وَفَرْشُهَا وَتَفَاصِيلُهَا نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ حَدِيثٍ.

---

(١) **فِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ**: النَّاسُ إِلَىٰ الْعِلْمِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَحَاجَتُهُ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ.

وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ: مُقَدَّرَاتُ الْأَذْهَانِ، وَأُغْلُوطَاتُ[١] الْمَسَائِلِ، وَالْفُرُوعُ وَالْأُصُولُ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، الَّتِي كُلُّ مَالَهَا فِي نُمُوٍّ وَزِيَادَةٍ وَتَوْلِيدٍ، وَالدِّينُ كُلُّ مَالَهُ فِي غُرْبَةٍ وَنُقْصَانٍ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»[٢].

فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَأْخُذَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَأَنْ يَدَعَ التَّعَصُّبَ وَالتَّقْلِيدَ جَانِبًا، فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي الِاتِّبَاعِ، وَالشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ فِيمَا أَحْدَثَ الْأَتْبَاعُ.

❁ ❁ ❁

(١) **الْأُغْلُوطَاتُ**: وَاحِدُهَا أُغْلُوطَةٌ، وَزْنُهَا أُفْعُولَةٌ، مِنَ الْغَلَطِ كَالْأُحْمُوقَةِ مِنَ الْحُمْقِ، وَالْأُسْطُورَةِ مِنَ السَّطْرِ.

(٢) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» (٢/ ٢٥٦).

١٢- التَّسَرُّعُ فِي الْفَتْوَى

كَانَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ، وَصَفْوَةُ الْأَتْقِيَاءِ، وَأُسْوَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَصَفْوَةُ الْأَصْفِيَاءِ، مُحَمَّدٌ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ رَبِّهِ عِلْمٌ بِهِ تَوَقَّفَ فِيهِ؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ مِنْ رَبِّهِ بِهِ خَبَرٌ.

وَكَذَلِكَ كَانَ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا فِيمَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ قَالَ: فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**»، فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟**». قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَبِّي ﷻ، فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ عليه السلام، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «**أَسْوَاقُهَا**» قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صِفَةِ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» (ص٩): «وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ (٢/ ٦) بِسَنَدٍ حَسَنٍ».

فَيَا لَلَّهِ! مَا أَجَلَّ مَقَامَ «لَا أَدْرِي»!! فَهَذَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مَنْ هُوَ يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**لَا أَدْرِي**».

وَكَذَلِكَ صَنَعَ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَمَا نَطَقَ فِي الْإِجَابَةِ بِحَرْفٍ حَتَّىٰ سَأَلَ رَبَّهُ عز وجل.

وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ يَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ حُدُودِ مَا عَلِمُوا لَا يَتَقَدَّمُونَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَأَلَهُمْ رَبُّهُمْ عز وجل: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣١-٣٢].

فَأَيُّ ضَيْرٍ عَلَىٰ الرَّجُلِ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُهُ؟! أَوْ عَنْ أَمْرٍ لَا يَدْرِيهِ، أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِيهِ؟! وَإِمَامُهُ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُكَرَّمُونَ، وَالْتِزَامُ الْأَصْحَابِ رضي الله عنهم لِهَذَا النَّهْجِ لَا يَفْتُرُونَ عَنِ الْأَخْذِ بِهِ، وَلَا عَنْهُ يَحِيدُونَ، وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَا يُحْسِنُونَ، وَلَا يَتَجَمَّلُونَ بِمَا لَا يَمْلِكُونَ.

«رَوَىٰ مُجَاهِدٌ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عُذْرُهَا قَبَّلَ أَبُو بَكْرٍ رَأْسَهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَا عَذَرْتَنِي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ مَا لَا أَعْلَمُ؟!

وَرَوَىٰ أَيُّوبُ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه عَنْ آيَةٍ، فَقَالَ: أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيْنَ أَذْهَبُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهِ؟

وَذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ عَنْ عُزْرَةَ التَّمِيمِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ-: وَا بَرْدَهَا عَلَىٰ كَبِدِي! ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنْ يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ، فَيَقُولُ: لَا أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ -أَيْضًا- عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: خَمْسٌ إِذَا سَافَرَ فِيهِنَّ رَجُلٌ إِلَىٰ الْيَمَنِ كُنَّ فِيهِ عِوَضًا مِنْ سَفَرِهِ: لَا يَخْشَىٰ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا ذَنْبَهُ، وَلَا يَسْتَحِي مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَلَا يَسْتَحِي مَنْ يَعْلَمُ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ، وَالصَّبْرُ مِنَ الدِّينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ -وَهُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ-: خَرَجْنَا مَعَ ابْنِ عُمَرَ نَمْشِي، فَلَحِقَنَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: أَنْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: سَأَلْتُ عَنْكَ فَدُلِلْتُ عَلَيْكَ، فَأَخْبِرْنِي: أَتَرِثُ الْعَمَّةُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي. قَالَ: أَنْتَ لَا تَدْرِي؟! قَالَ: نَعَمْ، اذْهَبْ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ بِالْمَدِينَةِ فَاسْأَلْهُمْ. فَلَمَّا أَدْبَرَ قَبَّلَ يَدَيْهِ وَقَالَ: نِعِمَّا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سُئِلَ عَمَّا لَا يَدْرِي، فَقَالَ: لَا أَدْرِي.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَلْيَقُلِ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ أَفْتَىٰ النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْأَلُونَهُ عَنْهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ»(١).

---

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (٢/ ١٨٤).

«قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ رَأَيْتُ ثَلَاثَمِئَةٍ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ مَا فِيهِمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكْفِيَهُ صَاحِبُهُ الْفُتْيَا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَىٰ: أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِئَةً مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فَيَرُدُّهَا هَذَا إِلَىٰ هَذَا، وَهَذَا إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ الْأَوَّلِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يُحَدِّثُ حَدِيثًا أَوْ يُسْأَلُ عَنْهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ شَيْءٍ- إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يُسْتَفْتَىٰ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا.

وَقَالَ أَبُو حُصَيْنٍ الْأَسَدِيُّ: إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُفْتِي فِي الْمَسْأَلَةِ لَوْ وَرَدَتْ عَلَىٰ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ لَجَمَعَ لَهَا أَهْلَ بَدْرٍ»[1].

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ فَسَارُوا عَلَىٰ نَهْجِ الْحَقِّ، وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَانُوا أَئِمَّةَ الْهُدَىٰ بِحَقٍّ، وَأَصْحَابَ اتِّبَاعٍ صَادِقٍ وَأَمِينٍ.

«**سُئِلَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ**: لَا أُحْسِنُهُ، فَقَالَ السَّائِلُ: إِنِّي جِئْتُ إِلَيْكَ لَا أَعْرِفُ غَيْرَكَ! فَقَالَ الْقَاسِمُ: لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ طُولِ لِحْيَتِي وَكَثْرَةِ النَّاسِ حَوْلِي، وَاللهِ مَا أُحْسِنُهُ، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَالِسٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ: يَا ابْنَ أَخِي، الْزَمْهَا، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُكَ فِي مَجْلِسٍ أَنْبَلَ مِنْكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: وَاللهِ

(١) «صِفَةُ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» لِابْنِ حَمْدَانَ الْحَنْبَلِيِّ، تَحْقِيقُ الْأَلْبَانِيِّ (ص٧).

لَأَنْ يُقْطَعَ لِسَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِمَا لَا عِلْمَ لِي بِهِ.

وَسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ شَيْءٍ أَيَّامًا، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا أَتَكَلَّمُ فِيمَا أَحْتَسِبُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَلَسْتُ أُحْسِنُ مَسْأَلَتَكَ هَذِهِ.

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ: شَهِدْتُ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً، فَقَالَ فِي اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنْهَا: لَا أَدْرِي.

وَقِيلَ: رُبَّمَا كَانَ يُسْأَلُ عَنْ خَمْسِينَ مَسْأَلَةً فَلَا يُجِيبُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ أَجَابَ فِي مَسْأَلَةٍ فَيَنْبَغِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجِيبَ فِيهَا أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونُ خَلَاصُهُ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يُجِيبُ فِيهَا.

وَسُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ سَهْلَةٌ!! فَغَضِبَ وَقَالَ: لَيْسَ فِي الْعِلْمِ خَفِيفٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ وَخَاصَّةً مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ مَالِكٌ أَيْضًا: مَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ شَهِدَ لِي سَبْعُونَ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَقَالَ: لَا يَنْبَغِي لِرَجُلٍ أَنْ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَهْلًا لِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَسْأَلَ مَنْ كَانَ أَعْلَمَ مِنْهُ، وَمَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ سَأَلْتُ رَبِيعَةَ وَيَحْيَىٰ بْنَ سَعِيدٍ فَأَمَرَانِي بِذَلِكَ، وَلَوْ نَهَيَانِي انْتَهَيْتُ.

وَقَالَ: إِذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يُجِيبُ أَحَدُهُمْ فِي مَسْأَلَةٍ حَتَّىٰ يَأْخُذَ رَأْيَ صَاحِبِهِ، مَعَ مَا رُزِقُوا مِنَ السَّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ مَعَ الطَّهَارَةِ، فَكَيْفَ بِنَا الَّذِينَ غَطَّتِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبُ قُلُوبَنَا؟!

وَقِيلَ: كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ كَأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَقَالَ أَبُو نُعَيْمٍ: مَا رَأَيْتُ عَالِمًا أَكْثَرَ قَوْلًا «لَا أَدْرِي» مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ.

وَسُئِلَ الشَّعْبِيُّ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ: أَلَا تَسْتَحِي مِنْ قَوْلِكَ «لَا أَدْرِي» وَأَنْتَ فَقِيهُ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَسْتَحِ حِينَ قَالَتْ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢].

وَقَالَ أَبُو الذَّيَّالِ: تَعَلَّمْ لَا أَدْرِي، فَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ: لَا أَدْرِي، عَلَّمُوكَ حَتَّىٰ تَدْرِيَ، وَإِنْ قُلْتَ: أَدْرِي، سَأَلُوكَ حَتَّىٰ لَا تَدْرِيَ.

وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَسَكَتَ، فَقِيلَ: أَلَا تُجِيبُ؟ فَقَالَ: حَتَّىٰ أَدْرِيَ، الْفَضْلُ فِي سُكُوتِي أَوْ فِي الْجَوَابِ؟

وَقَالَ الْأَثْرَمُ: سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَحْمَدَ يُسْتَفْتَىٰ فَيَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِي، وَذَلِكَ فِيمَا عُرِفَتْ فِيهِ الْأَقَاوِيلُ، وَقَالَ: مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا فَقَدْ عَرَّضَهَا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تُلْجِئُ الضَّرُورَةُ.

وَقِيلَ لَهُ -أَيْ: لِأَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ-: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؛ الْكَلَامُ أَوِ الْإِمْسَاكُ؟ فَقَالَ: الْإِمْسَاكُ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَّا لِضَرُورَةٍ.

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ لَا يَكَادُ يُفْتِي فُتْيَا، وَلَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي.

وَقَالَ سُحْنُونٌ صَاحِبُ «الْمُدَوَّنَةِ»: أَشْقَىٰ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَأَشْقَىٰ مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ فَفَكَّرْتُ -يَقُولُ ابْنُ حَمْدَانَ- فِيمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ فَوَجَدْتُهُ الْمُفْتِيَ يَأْتِيهِ رَجُلٌ قَدْ حَنَثَ فِي امْرَأَتِهِ وَرَقِيقِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: لَا شَيْءَ عَلَيْكَ، فَيَذْهَبُ الْحَانِثُ فَيَتَمَتَّعُ بِامْرَأَتِهِ وَرَقِيقِهِ وَقَدْ بَاعَ الْمُفْتِي دِينَهُ بِدُنْيَا هَذَا.

وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مَسْأَلَةً فَتَرَدَّدَ إِلَيْهِ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَالَ: وَمَا أَصْنَعُ لَكَ يَا خَلِيلِي وَمَسْأَلَتُكَ هَذِهِ مُعْضِلَةٌ وَفِيهَا أَقَاوِيلُ، وَأَنَا مُتَحَيِّرٌ فِي ذَلِكَ؟! فَقَالَ لَهُ: وَأَنْتَ أَصْلَحَكَ اللهُ لِكُلِّ مُعْضِلَةٍ. فَقَالَ لَهُ سُحْنُونٌ: هَيْهَاتَ يَا ابْنَ أَخِي!! لَيْسَ بِقَوْلِكَ هَذَا أَبْذُلُ لَكَ لَحْمِي وَدَمِي فِي النَّارِ.

وَكَانَ يُزْرِي عَلَىٰ مَنْ يَعْجَلُ فِي الْفَتْوَىٰ، وَيَذْكُرُ النَّهْيَ فِي ذَلِكَ عَنْ مُعَلِّمِيهِ الْقُدَمَاءِ.

وَقَالَ: إِنِّي لَأُسْأَلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ أَعْرِفُهَا، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْجَوَابِ إِلَّا كَرَاهَةُ الْجَرَاءَةِ بَعْدِي عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ. وَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُ أَصْحَابِكَ أَجَابَ، فَتَتَوَقَّفُ فِيهَا، فَقَالَ: فِتْنَةُ الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ.

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَيَعْجَلُ فِي الْجَوَابِ فَيُصِيبُ فَأَذُمُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَيَتَثَبَّتُ فِي الْجَوَابِ فَيُخْطِئُ فَأَحْمَدُهُ.

وَقَالَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْأَلَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسْأَلَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ وَالصَّيْمَرِيُّ: قَلَّ مَنْ حَرَصَ عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ وَسَابَقَ إِلَيْهَا وَثَابَرَ عَلَيْهَا إِلَّا قَلَّ تَوْفِيقُهُ وَاضْطَرَبَ أَمْرُهُ، وَإِذَا كَانَ كَارِهًا لِذَلِكَ غَيْرَ مُخْتَارٍ لَهُ، مَا وَجَدَ مَنْدُوحَةً عَنْهُ، وَقُدِّرَ أَنْ يُحِيلَ بِالْأَمْرِ فِيهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، كَانَتِ الْمَعُونَةُ لَهُ مِنَ اللهِ أَكْثَرَ، وَالصَّلَاحُ فِي جَوَابِهِ وَفُتْيَاهُ أَغْلَبَ.

وَرَأَىٰ رَجُلٌ رَبِيعَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

وَقَالَ: لَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَاهُنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السُّرَّاقِ.

قُلْتُ -أَيِ: ابْنُ حَمْدَانَ الْحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ-: فَكَيْفَ لَوْ رَأَىٰ زَمَانَنَا، وَإِقْدَامَ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْفُتْيَا مَعَ قِلَّةِ خِبْرَتِهِ وَسُوءِ سِيرَتِهِ وَشُؤْمِ سَرِيرَتِهِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ السُّمْعَةُ وَالرِّيَاءُ وَمُمَاثَلَةُ الْفُضَلَاءِ وَالنُّبَلَاءِ وَالْمَشْهُورِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالْمُتَبَحِّرِينَ السَّابِقِينَ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ يُنْهَوْنَ فَلَا يَنْتَهُونَ، وَيُنَبَّهُونَ فَلَا يَنْتَبِهُونَ، قَدْ أُمْلِيَ لَهُمْ بِاعْتِكَافِ الْجُهَّالِ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا مَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَمَا عَلَيْهِمْ، فَمَنْ أَقْدَمَ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ أَهْلًا مِنْ فُتْيَا أَوْ قَضَاءٍ أَوْ تَدْرِيسٍ أَثِمَ، فَإِنْ أَكْثَرَ مِنْهُ وَأَصَرَّ وَاسْتَمَرَّ فَسَقَ، وَلَمْ يَحِلَّ قَبُولُ قَوْلِهِ وَلَا فُتْيَاهُ وَلَا قَضَائِهِ»[1].

---

(١) «صِفَةُ الْفَتْوَىٰ وَالْمُفْتِي وَالْمُسْتَفْتِي» (ص٧).

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُوِّينَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: مَا وَجَدْتَ مَنْ تَسْأَلُهُ غَيْرِي؟!

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: مَا أَفْتَيْتُ حَتَّىٰ سَأَلْتُ سَبْعِينَ شَيْخًا، هَلْ تَرَوْنَ لِي أَنْ أُفْتِيَ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: فَلَوْ نَهَوْكَ؟ قَالَ: لَوْ نَهَوْنِي انْتَهَيْتُ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي حَلَفْتُ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ حَلَفْتُ، قَالَ: لَيْتَكَ دَرَيْتَ كَيْفَ حَلَفْتَ، فَدَرَيْتُ أَنَا كَيْفَ أُفْتِيكَ!

وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ سَجِيَّةَ السَّلَفِ لِخَشْيَتِهِمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَخَوْفِهِمْ مِنْهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَتِهِمْ تَأَدَّبَ»(١).

(١) «تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص١٢١).

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com